الوسطية

من خصائص هذا الدين الحنيف ؛ أنه رباني المصدر ، رباني المنهج ، رباني الغاية ، رباني الوجهة ، وأن هذا الدين الحنيف ، إنساني الطابع ، يشمل كل مكان ، وكل زمان ، ويصلح لكل مكان ، ولكل زمان ، وأن هذا الدين الحنيف واقعي ، بمعنى أنه لا يقبل الواقع السيىء ، لكنه يطوره بأدوات واقعية ، وأن هذا الدين الحنيف ، واضح لا يزيغ عنه إلا ضالّ ، وأنه يجمع ، بشكل معجز ، بين الثبات والتطور ، ومن أبرز خصائص هذا الدين الحنيف **الوسطية** ، أو التوازن ، وسيكون تناول هذا الموضوع ، إن شاء الله تعالى ، من زاوية **معاني** الوسطية في الإسلام ، ومن زاوية **مظاهرها** في العقيدة ، والمنهج ، في العبادات والمعاملات ، في الأخلاق والنظم .

من أبرز خصائص هذا الدين القويم **الوسطية** ، أو التوازن ، ونعني بالوسطية التوسط ، أو **التعادل بين طرفين متقابلين** ، أو متضادين ، بحيث لا ينفرد أحدهما في التأثير ، ويطرد الطرف

الآخر ، وبحيث لا يأخذ أحد الطرفين أكثر من حقه ، ويطغى على الطرف الآخر ، ويحيف عليه ، فلا إفراط ، ولا تفريط ، ولا غلو ، ولا تقصير ، ولا طغيان ، ولا إخسار ، ولا شطط ، ولا وكس ، بل كلٌّ يأخذ حقه بالقسطاس المستقيم ، **فالإسلام وسط** بين المادية المقيتة ، والروحية الحالمة ، بين الواقعية المرة ، والمثالية التخيلية ، بين الفردية الطاغية ، والجماعية الساحقة ، بين الثبات الرتيب ، والتغير المضطرب ، بين الحاجات الملحة ، والقيم البعيدة ، بين العقلانية الباردة ، والعاطفية المتقدة ، بين نوازع الجسد ، ومتطلبات الروح .

والوسطية في الإسلام تنطلق من قوله تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

من حكمة الله تعالى ، أنه اختار الوسطية ، أو التوازن **شعاراً** **مميزاً** ، **لهذه الأمة** التي هي آخر الأمم ، ولهذه الرسالة التي ختمت بها الرسالات ، إذ بعث بها خاتم أنبيائه ، رسولاً للناس جميعاً ، ورحمة للعالمين قاطبةً ، وقد فسرت هذه الوسطية بالعدل ، في قوله تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

فالوسطية تعني **العدل** ، والعدل هو : **توسط بين طرفين**

متنازعين ، دون ميل ، أو تحيز لطرف ، أو لجهة ، والعدل : إعطاء كل ذي حِق حقه ، دون بخس ، أو جور ، قال المفسرون ، في قوله تعالى :

﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ [القلم : ٢٨] .

أوسطهم أي أعدلهم ، فأعدل بقاع الشيء وسطه ، ووسط الدائرة مركزها ، ثم استُعير الوسط للخصال البشرية المحمودة ، لأنها وسط بين الخصال المذمومة ، فالشجاعة ، مثلاً ، وسط بين الجبن والتهور .

الوسطية تعني أيضاً **استقامة المنهج** ، والبعد عن الميل والانحراف ، فالصراط المستقيم هو ـ كما قال أحد المفسرين ـ الطريق السوي ، الواقع وسط الطرق المنحرفة عن القصد ، فإذا فرضنا خطوطاً كثيرةً واصلة بين نقطتين متقابلتين ؛ فالخط المستقيم إنما هو الخط الواقع في وسط تلك الخطوط المنحنية أو المنكسرة ، هو وسطها ، أقصرها إلى الهدف ، والمسلم يسأل ربه ؛ أن يهديه إلى الصراط المستقيم ، كل يوم ، مالا يقل عن سبع عشرة مرة ، وذلك حينما يقرأ الفاتحة :

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة : ٦ـ٧] .

فالمغضوب عليهم هم الذين أفرطوا ، والضالون هم الذين

فرّطوا ، المغضوب عليهم هم الذين عرفوا وانحرفوا ، والضالون هم الذين جهلوا فانحرفوا .

والوسطية في الإسلام تعني **الخيرية** ، والفضل ، والتميز ، في الأمور المادية والمعنوية ، فأفضل حبات العقد واسطته ، ورئيس القوم في الوسط ، والأتباع من حوله ، وفي الأمور المعنوية ، نجد التوسط خيراً من التطرف ، ومن حكم العرب ؛ خير الأمور الوسط ، وقال أحد الحكماء : الفضيلة وسط بين رذيلتين ، وقال ابن كثير : في تفسير قوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ الوسط هاهنا الخيار والأجود ، كما يقال : قريش أوسط العرب نسباً ، أي خيرها ، وكان عليه الصلاة والسلام وسطاً في قومه ، أي أشرفهم نسباً ، والصلاة الوسطى أفضل الصلوات .

في الإسلام جانب **فكري** ، وجانب **نفسي** ، وجانب **سلوكي** ، فحينما ينمو جانب ، من هذه الجوانب ، نمواً زائداً عن حده الطبيعي ، ويكون هذا ـ عادة ـ على حساب الجوانب الأخرى ، عندئذ يكون **التطرف** ، أما حينما تنمو الجوانب الثلاثة ، نمواً طبيعياً ، متوازناً ، بحيث لا يطغى جانب على جانب ، عندئذ يكون **التفوق** ، فنحن نتطلع إلى التفوق ، لا إلى التطرف .

الوسطية أيضاً تمثل **الأمان** ، والبعد عن الخطر ، فالأطراف ، عادة ، تتعرض للخطر ، والفساد ؛ بخلاف الوسط ، فهو محمي

محروس ، بما حوله ، والتوسط أمن ، واستقرار ، والتطرف غلو ، وانحراف ، وفساد .

والوسطية تمثل **القوة** ، فالوسط هو مركز القوة ، أشعة الشمس ، لا تكون أقوى تأثيراً ، إضاءة ، وحرارة ، إلا وهي في وسط النهار ، وفي وسط قبة السماء ، ولا يكون الإنسان في أقوى حالاته ، إلا في شبابه ، وهو وسط بين ضعف الطفولة ، وضعف الشيخوخة .

والوسطية ، تمثل نقطة **الوحدة** ، ومركز التلاقي ، فعلى حين تتعدد الأطراف ، تعدداً ، قد لا يتناهى ، يبقى الوسط واحداً ، يمكن لكل الأطراف أن تلتقي عنده ، فهو المنتصف وهو المركز ، مركز الدائرة في وسطها ، فيمكن لكل الخطوط الآتية من المحيط أن تلتقي عنده ، والفكرة الوسطى ؛ يمكن لكل الأفكار المتطرفة أن تلتقي بها ، في نقطة ما ، إذاً فالتوسط ، والاعتدال ، هو طريق الوحدة الفكرية ، ومركزها ، ولهذا تثير الأفكار المتطرفة ، من الفرقة ، والخلاف في أبناء الأمة الواحدة ، مالا تثيره المذاهب المعتدلة ، في العادة ، التي وفق الكتاب والسنة .

* * *

هذا عن معاني الوسطية في الإسلام ؛ فماذا عن **مظاهر** هذه الوسطية ؟

في **العقيدة** : الإسلام وسط ، بين اعتقاد الخرافيين ، الذين يصدقون كل شيء ، ويؤمنون بكل برهان ، وبين الماديين ، الذين ينكرون كل شيء وراء الحس ، ولا يصغون إلى صوت الفطرة ، ولا إلى نداء العقل ، ولا إلى صراخ المعجزة .

فالإسلام الحق يدعو إلى الإيمان ، والاعتقاد بما قام عليه الدليل القطعي ، والبرهان اليقيني ، ويعد اليقين الحسي ، واليقين الاستدلالي ، واليقين الإخباري ، مسالك يقينية للتلقي ، ويرفض كل ما وراء ذلك من الأوهام .

قال تعالى :

﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة : ١١١] .

وقال تعالى :

﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٧] .

والإسلام وسط ، بين الذين يعدون **الكون** هو الوجود الحق ، وما عداه ، مما لا تراه العين ، خرافة ، ووهم ؛ وبين الذين يعدون الكون وهماً ، لا حقيقة له ، وسراباً يحسبه الظمآن ماء .

فالإسلام يعد الكون حقيقة ، ولكنه يعبر من هذه الحقيقة إلى حقيقة أكبر منها ، يعبر من الكون إلى المكون ، ومن الخلق إلى الخالق ، ومن النظام إلى المنظم ، ومن الصور إلى المصور ،

ومن التسيير إلى المسير ، ومن التربية إلى المربي ، فالكون حقيقة ينقلنا إلى حقيقة أكبر ، وهي أن لهذا الكون خالقاً ، ومربياً ، ومسيراً ، موجوداً ، وواحداً ، وكاملاً .

الإسلام وسط في نظرته إلى **الأنبياء** ، فهم بشر مثلنا ، يأكلون الطعام ، ويمشون في الأسواق ، ولكثير منهم أزواج وذرية ، ولكنهم قِمَم في معرفة ربهم ، وطاعتهم له ، وإخلاصهم إليه ، اصطفاهم ، وطهرهم ، وعصمهم ، وامتن عليهم بالوحي ، وأيدهم بالمعجزات ، هذه نظرة الإسلام إلى الأنبياء .

والإسلام وسط بين الذين يؤمنون **بالعقل** وحده ، أداة لمعرفة حقائق الوجود ، وبين الذين لا يؤمنون إلا عن طريق الإلهام ، أو الأوهام ، ولا يعترفون للعقل بدور في نفي أو إثبات .

إن الإسلام يقرر : أن الدين في الأصل **وحي ونقل** ، وبما أن أخطر ما في النقل صحته ؛ فللعقل مهمتان ، حيال النقل ، مهمة إثبات صحة النقل ، ومهمة فهم النقل ، تمهيداً لتطبيقه ، فبالعقل تصل إلى الإيمان بالله يقيناً ، وبالعقل تؤمن بكتابه يقيناً ، عن طريق إعجازه ، وبالعقل تؤمن برسوله يقيناً ، عن طريق الكتاب ، وهنا ينتهي دور العقل في البحث ؛ ليبدأ دوره في التلقي ، إثباتاً ، وفهماً ، فالحقائق التي عجز العقل عن إدراكها ، لافتقارها إلى آثار تدل عليها ، يتلقاها العقل عن الوحي ، دون أن يكون حكماً عليها ، وهذه وسطية الإسلام في **منهج التلقي** .

والإسلام وسط في العبادات التي فرضها ، فهو في العبادات الشعائرية ، بين إلغائها ، وبين الانقطاع لها ، فالعبادات الشعائرية في الإسلام ، محدودة ، ومعقولة ، ومعللة بمصالح الخلق ، وهي ، فضلاً عن هذا ، مرتبطة بالعبادات التعاملية ، فمن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، لا يعد مصلياً بالمعنى الإيماني ، ومن لم يدع قول الزور والعمل به ، لا يعد صائماً ، ومن حج بمال حرام ، يقال له عند التلبية ، إذا قال ، لبيك اللهم لبيك ، يقال له : لا لبيك ولا سعديك وحجك مردود عليك ، والإنفاق مع الفسق غير متقبل ، لقوله تعالى :

﴿ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٥٣] .

فالإسلام عبادة وعمل ، عبادة متقبلة ، أساسها العمل الصالح ، وعمل صالح ، ينطلق من عبادة صحيحة .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ أَتَدْرُونَ مَن الْمُفْلِسُ ؟ قَالُوا : الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لا دِرْهَمَ لَهُ وَلا مَتَاعَ ، فَقَالَ : إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا ، وَقَذَفَ هَذَا ، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا ، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا ، وَضَرَبَ هَذَا ، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ .

وفي **المعاملات** ، الإسلام وسط ، بين أن تدير خدك الأيسر لمن ضربك على خدك الأيمن ، وبين أن تكيل له الصاع عشرة أصوع ، قال تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الشورى : ٣٩-٤٠] .

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النحل : ١٢٦-١٢٧] .

يتضح من هذه الآيات الكريمة ، أن على المسيء ، أن يدفع ثمن إساءته ، ملزَماً ، وأن لصاحب الحق ، أن يعفو عنه مختاراً ، فالعدل قسري ، والعفو والإحسان طوعي .

وفي **الأخلاق** ، الإسلام وسط ، بين غلاة المثاليين ، الذين تصوروا الإنسان ملاكاً ، أو شبه ملاك ، ليس غير ، فرسموا له مستوى ، لم يستطع أن يصل إليه ؛ وبين غلاة الواقعيين ، الذين حسبوا الإنسان حيواناً ، أو كالحيوان ، يعيش لشهوة .

ولكن الإسلام ينطلق من أن الإنسان ركب من عقل وشهوة ، فإن قاده عقله إلى معرفة ربه ، وضبط شهوته ، وفق منهج خالقه سما ، وسما حتى تجاوز في سموه الملائكة المقربين ، وإن عطل عقله ، أو أساء استخدامه ، فنسي سرّ وجوده ، وجهل منهج

ربه ، وتحكمت به شهواته ، ونزواته ، سقط حتى صار أدنى من الحيوان .

والإسلام وسط في نظرته إلى **الحياة الدنيا** ، فهو بين الذين عدُّوا الحياة الدنيا هي كل شيء ، وقالوا : إن هي إلا حياتنا الدنيا ، وما نحن بمبعوثين ، فعبدوا شهواتهم ، ومصالحهم المادية ؛ وبين الذين عدوا وجودهم في الدنيا شراً ، فانسحبوا من الحياة ، وحرموا أنفسهم من طيباتها وزينتها المشروعة ، لقد عد الإسلام الحياتين الدنيا والآخرة متكاملتين ، فالأولى مطية للثانية .

والإسلام يحقق توازناً ، بين **الروحية والمادية** ، وهو وسط بينهما ، بين الدين والدنيا ، بين القيم والحاجات ، بين الغريزة والعقل ، بين الشهوة والمبدأ ، الإنسان كما أراده الله ، عز وجل ، ليس الذي ينقطع عن العالم ، وينسحب من الحياة ، ويتفرغ للعبادة ، ويتبطل فلا يعمل ، ويتقشف فلا يتمتع ، ويتبتل فلا يتزوج ، ويتعبد فلا يفتر ، ليله قائم ، ونهاره صائم ، يده من الدنيا صفر ، وحظه من الحياة خبز الشعير ، ولبس المرقع ، ليس هذا هو الإنسان الذي أراده الله ، كما أنه ليس كصاحب الجنتين ، يفخر على صاحبه ، منتفخاً بثروته ، مختالاً بجنته ، قائلاً : أنا أكثر منك مالاً ، وأعز نفراً ، قال تعالى :

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ

﴿أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف : ٣٥ـ٣٦] .

فأرسل الله على جنته حسباناً من السماء ، فأصبحت صعيداً زلقاً ، وأصبح ماؤها غوراً .

وليس كقارون الذي آتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة ، بغى على قومه ، واغتر بماله ، وعزا الفضل إلى نفسه ، وقال : إنما أوتيته على علم عندي ، فخسف الله به ، وبداره الأرض .

الإنسان الحق ليس هذا ولا ذاك ، فالإنسان ، في نظر الإسلام ، مخلوق مزدوج الطبيعة ، يقوم كيانه على قبضة من طين الأرض ، ونفخة من روح الله ، قال تعالى :

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص : ٧١ـ٧٢] .

الإنسان ، بعنصره الطيني المادي ، قادر على أن يسعى في الأرض ، وعلى أن يعمرها ، وعلى أن يكتشف ما أودع الله فيها من كنوز ونعم ، وعلى أن يسخر قواها لمنفعته ، والنهوض بمهمته ، وهو ، بعنصره الروحي ، مهيأ للتحليق في أفق أعلى ، والتطلع إلى عالم أرقى ، والسعي إلى حياة ، هي خير وأبقى ، وبهذا يسخِّر المسلم المادة ، ولا تسخره ، ويستخدم ما على الأرض من ثروات ، وخيرات ، من دون أن تستخدمه ، ومن دون أن تستعبده ، وهذا ما يؤكده البيان الإلهي :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ [المائدة: ٨٧ـ ٨٨] .

وقال تعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [الملك : ١٥] .

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة : ١٠] .

كان النبي ﷺ ، يحرص على الوسطية ، والتوازن ، بين الدنيا والآخرة ، وكان يتمثل الدعاء القرآني :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة : ٢٠١] .

وكان ﷺ يدعو فيقول :

« اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري ، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي ، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي ، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير ، واجعل الموت راحة لي من كل شر » .

كان ، ﷺ ، يأكل من طيبات الحياة الدنيا ، ولم يحرمها على نفسه ، ولكنه لم يجعلها شغل نفسه ، ولا محور تفكيره ، وكان من دعائه « **اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا** » ، وكان ، ﷺ ، حينما يرى من بعض أصحابه إفراطاً في التعبد ، والصيام ، والقيام على حساب الجسم ، والأهل ، والعمل ، يقول له :

« **إن لبدنك عليك حقاً ، وإن لزوجك عليك حقاً ، وإن لزورك (أي لزوارك ـ ضيوفك) عليك حقاً ، فأعط كل ذي حق حقه** »[1] .

وكان عليه الصلاة والسلام يقول :

« **أما والله إني أخشاكم لله ، وأتقاكم له ، ولكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي ، فليس مني** »[2] .

وكان ، عليه الصلاة والسلام ، يحذر أصحابه من أن تفتنهم الدنيا ، فيقول :

« **والله لا الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا ، كما بسطت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، فتهلككم كما أهلكتهم** »[3] .

---

(١) رواه البخاري .
(٢) رواه البخاري .
(٣) أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما من أصحاب السنن .

هنا محل الإشارة إلى أن بر الوالدين ، من خلال الأحاديث النبوية العديدة ، يعدل الجهاد في سبيل الله ، وأن **حسن تبعل المرأة** لزوجها ، يعدل الجهاد في سبيل الله ، وأن **حسن تربية الأولاد** ، ولاسيما البنات منهم ، طريق إلى الجنة ، وهو العمل الذي لا ينقطع عند موت صاحبه ، بل إن **العمل** الذي يرتزق منه المسلم ، إذا كان في الأصل مشروعاً ، وسلك فيه الطرق والأساليب المشروعة ، وأراد منه المسلم كفاية نفسه وأهله ، وخدمة المسلمين ، ولم يشغله عن فرض ديني ، أو واجب ، أو طاعة ، أو طلب علم ، إن عمل المسلم ، أو حرفته ، نوع من أنواع العبادة ، يتقرب به إلى الله تعالى .

فبالإسلام ، تلتقي الفردية والجماعية ، في صورة متزنة ، رائعة ، تتوازن فيها حرية الفرد ، ومصلحة الجماعة ، وتتكافأ فيها الحقوق والواجبات ، وتتوزع فيها المغانم والتبعات ، بالقسطاس المستقيم ، إن المشرع ، في الإسلام ، هو خالق الإنسان ، فمن المستحيل ، أن يشرع الخالق الحكيم من الأحكام والنظم ما يعطل فطرة الإنسان ، أو يصادمها ، وقد خلق الله الإنسان على طبيعة مزدوجة ؛ فردية واجتماعية ، في آن واحد ، فالفردية جزء أصيل في كيان الإنسان ، ولهذا يحب الإنسان وجوده ، وسلامة وجوده ، وكمال وجوده ، واستمرار وجوده ، ومع ذلك نرى فيه نزعة فطرية إلى الاجتماع بغيره ، لذلك تضطرب نفسه ، ويختل توازنه ، لو عزل نفسه عن المجتمع ، أو عزل مقهوراً بالحبس

الانفرادي ، والنظام الأكمل لهذا الإنسان ، هو الذي يرعى فيه هذين الجانبين ، الفردية والجماعية ، فلا يطغى أحدهما على الآخر ، لذلك فلا عجب أن يكون الإسلام ، وهو دين الفطرة ، نظاماً **وسطاً** ، عدلاً ، فلا يجور على الفرد ، لحساب المجتمع ، ولا يحيف على المجتمع من أجل الفرد ، ولا يدلل الفرد بكثرة الحقوق التي تمنح له ، ولا يرهقه بكثرة الواجبات التي تلقى عليه ، وإنما يكلفه من الواجبات في حدود وسعه ، من دون حرج ، ولا إعنات .

والإسلام ، بوسطيته ، يقرر للإنسان من الحقوق ما يكافىء واجباته ، ويلبي حاجاته ، ويحفظ له كرامته ، ويصون له إنسانيته .

لهذا ، ومراعاة للجانب الفردي في الإنسان ، قرر الإسلام حرمة الدم ، فحفظ للفرد **حق الحياة** ، وأعلن القرآن أنه :

﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة : ٣٢] .

لذلك أوجبت الشريعة القصاص ، في القتل ، وأكدت أن في القصاص حياةً للفرد والمجتمع .

وقرر الإسلام **حرية الاعتقاد** ، فلا يجوز أن يكره الإنسان على ترك دينه ، واعتناق دين آخر ، قال تعالى :

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ

وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

[البقرة : ٢٥٦] .

وقرر الإسلام **حرمة العرض** ، أي سمعة الإنسان ، فصان للفرد حق الكرامة ، فلا يجوز أن يهان في حضرته ، ولا أن يؤذى في غيبته ، قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الحجرات : ١١] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات : ١٢] .

وأكد الإسلام **حرمة المال** ، فصان للفرد حق التملك ، فلا يجوز أخذ ماله ، إلا بطيب نفس منه ، قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾

[النساء : ٢٩] .

وأكد الإسلام **حرمة البيت** ، فصان بذلك للفرد حق الاستقلال الشخصي ، فلا يجوز لأحد أن يقتحم عليه بيته ، بغير إذنه ، قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النور : ٢٧] .

وأكد الإسلام حرية النقد البناء المخلص ، قال تعالى :

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] .

وأكد الإسلام المسؤولية الفردية التي هي ثمرة التكليف ، وحرية الكسب ، وحتمية الجزاء ، قال تعالى :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر : ٣٨] .

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ [فاطر : ١٨] .

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر : ٩٢-٩٣] .

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٨١] .

ثم إن الإسلام ، مراعاة للجانب الاجتماعي للإنسان ، فقد فرض عليه للمجتمع واجبات ، تكافىء حقوقه عليه ، وقيد هذه

الحقوق والحريات الفردية ، بأن تكون في حدود مصلحة الجماعة ، وأن لا يكون فيها مضرة للغير ، وليس للفرد في مجتمع المسلمين ، أن يستخدم حقه فيما يؤذي الجماعة ، ويضرها ، كما أن حق الفرد ، إذا تعارض مع حقوق الجماعة ، فإن حق الجماعة أولى بالتقديم .

* * *

بما أن هذا الدين ، بأصليه ؛ القرآن والسنة ، أمر الله التكليفي ، وبما أن هذا الكون ؛ بسماواته وأرضه ، أمر الله التكويني ، وبما أن الله واحد في خلقه ، واحد في أمره ، فلا بد من أن نرى **الوسطية** والتوازن **في خلقه** كما نراها في أمره ، فأين هي الوسطية في خلقه ؟

من ملامح الوسطية ، أو التوازن في الكون ، أن الكواكب والنجوم ، والمجرات كلها ، تتحرك في مسارات مغلقة ، حول بعضها بعضاً ، وقد لخص القرآن الكريم هذه الحقيقة ، بشكل معجز ، قال تعالى :

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴾ [الطارق : ١١] .

أي إن كل متحرك في السماء ، أي في الكون ، يرجع بعد حين إلى مكان انطلاقه النسبي ، وينشأ من حركة كل نجم حول نجم آخر قوة نابذة تكافىء قوة جذب النجم المركزي ، فلولا هذه القوة النابذة ، الناشئة عن الحركة المغلقة ، لعملت قوى

التجاذب ، وحدها ، فجمعت الكون كله في كتلة واحدة ، قوى التجاذب تتوازن مع قوى النبذ ، فالكون على حاله الراهنة معجزة وأي معجزة .

وبما أن مسار الأرض حول الشمس بيضوي الشكل ، فحينما تقترب الأرض من الشمس ، تزداد سرعتها ، لئلا تنجذب إلى الشمس فتنشأ قوة نابذة جديدة ، تكافىء القوة الجاذبة الجديدة ، وحينما تبتعد الأرض عن الشمس ، تتباطىء سرعتها ، لئلا تتفلت من جاذبيتها ، أرأيتم إلى هذا التوازن بين قوى الجذب وقوى النبذ ، ولو أن الأرض ازدادت أو تباطأت سرعتها فجأة ، لانهدم كل ما عليها ، ولكن تسارعها بطيء ، وكذلك تباطؤها ، وهذا يدل على علم الله ، وعلى حكمة الله ، وعلى رحمة الله ، وعلى لطف الله .

هذه الوسطية ، أو التوازن في الآفاق ، فماذا عن الوسطية ، أو التوازن في **الأنفس** ، من الثابت أن دم الإنسان ، إذا زادت ميوعته ، نزف كله من جرح صغير ، عندها يموت الإنسان ؛ ولو زادت لزوجته ، عن الحد المعقول ، تجمد في العروق ، كالوحل في الطرقات ، فإذا وصلت خثرة منه إلى القلب ، أو الدماغ ، قضى الإنسان نحبه ، لذلك يفرز الجسم هرموناً ، يميع الدم ، وهرموناً آخر ، يجلطه ، ومن التوازن الدقيق ، بين إفراز الهرمونين ، يحافظ الدم على مستوى من السيولة ، تسمح له بالحركة ، عبر الأوعية الدقيقة ، ويحافظ الدم ، على مستوى من اللزوجة ، تمنع نزيفه من أدق الجروح .

أرأيتم إلى هذا التوازن ، بين هرمون التميع ، وهرمون التجلط .

ومن الثابت ، أيضاً ، أن الغدة النخامية ، ملكة الغدد الصماء ، وأن من مفرزاتها ، ما يحث الغدة الدرقية ، المسؤولة عن الاستقلاب ، (أي تحويل الغذاء إلى طاقة) ، وأن من مفرزات الغدة الدرقية ، ما يثبط الغدة النخامية ، وأنه من خلال التأثير المتبادل ، بين الغدتين ، يستقيم التوازن ، بين حاجة الإنسان إلى الغذاء ، وحاجته إلى الطاقة .

أرأيتم إلى هذا التأثير المتبادل ، بين الغدتين ، وكيف أن كل إفراز غدة ، يثبط أو ينشط الغدة الثانية .

* * *